أبو شادي والفلسفة الماسونية

لم ينظر مفكرنا للماسونية على أنها إحدى النزعات الغربية أو واحدة من الأيديولوجيات التي انتشرت بين المثقفين، بل نظر إليها على أنها فلسفة حياة. فقد ذهب أبو شادي إلى أن الماسونية ليست مجرد جماعة أو فصيل إصلاحي لتقويم الجماعات بل هي فلسفة وعقيدة إنسانية ترمي في المقام الأول إلى تحقيق السعادة للبشر كافة، لذا نجد محافلها لا تسمح بالانضمام إليها إلا من توفرت فيه رجاحة الذهن ونور العلم وسماحة الفضائل الأخلاقية، فالفيلسوف الماسوني هو الذي يهب حياته لخدمة المبادئ والمثل التي أتقنها بمنأى عن هاتيك التقاليد البائدة التي غرست فيه روح الأنانية والعنصرية والتملك والتعلق بالمناصب حتى لو كان على حساب ذوي الاستحقاق من العلماء والفلاسفة.

ويصرح أبو شادي بأن غاية الماسونية هو إعادة بناء الطبقة الوسطى في المجتمع الإنساني على نحو يجمع بين الذوق الراقي والذهن الواعي والعقل المستنير والعلم النافع والسياسة الحرة، ويقول «أني اعتبر الطبقات المتوسطة المتنورة التي ينتسب اغلبنا إليها. هي عماد الماسونية كما هي عماد الأمية، وعماد الإنسانية جملة، ولكن الغرض الذي ارمي إليه - كما يدل بياني - هو النظر إلى حسن الأصل وحسن السيرة ودرجة التهذيب والترفع عن الأنانية والحسد قبل أي اعتبار آخر. ولا أنكر أن المال قوة من القوى التي تحتاج إليها الماسونية دائماً لتنفيذ مشروعاتها الخيرية الإصلاحية وللدفاع عن الحق الإنساني، ولكن الفكر أعظم قوة لها، وبمعونته تستطيع الماسونية اجتذاب ثقة الجماهير ومعاونتها المالية... ومن واجباتنا المقدسة لنستحق الانتساب

إلى الماسـونية السمحة أن نعالج أنفسنا بأنفسـنا، وأن نتقي أمراض الضعف، وأن نكـون خير قدوة للجمهور، و إلا فالماسـونية بريئـة منا، وما نقترفه من ذنـوب إنما يعود إثمه علينا وحدنا، فالماسـونية أسـمى وأشرف من أن تتحمل جرائـر أبنائها الغواة الطائشـين، المحبي للظهـور والتكالب على الوظائف، المحاربين للأكفاء»[1]

ويؤكد أبو شـادي أن مصطلح الفلسفة الماسونية ليس مؤسساً على فراغ، أو مكتوباً من باب الشهرة أو التندر، بل على العكس من ذلك تماماً فالمحافل الماسـونية قد حفت بعشرات من الفلاسـفة والعلماء الذيـن اعتنقوا مبادئها واثـروا وتأثروا بتعاليمها، نذكر منهم فرنسـيس بيكون وجون لوك وفولتير وارنسـت هيكل ذلـك فضلاً عن حكماء الشرق ومجدديـه المحدثين في الهند ومـصر وبلاد الشـام... وبيّن أن بأمثال هؤلاء التنويريين أيقظت الماسـونية العقـول، وحـررت الأذهان مـن الخرافـات والترهات والمظالم، وشـجعت الثـورات عـلى كل قلاع الاسـتبداد والنزعـات النقدية عـلى كل ما يخالف العلم والعقـل والصالح العام، وذلك كله بمنـأى عن الانغماس في الصراعات السياسـية والدينية والجنسـية، وذلك أن هدف الماسـونية - كما ذكرنا - هو الأخوة العالمية والسلام الاجتماعي.

ويقول «الماسـونية أي البناية الحرة المسماة أيضاً بالفن الملوكي هي عشيرة أدبيـة لها رموز خاصـة وموضحة بروايـات مجازية، والغرض من العشـيرة البحث وراء الحقيقة والأحاسن ودرسها والسعي في نشرها والإعجاب بالجمال وممارسـة الفضيلـة... ومن أصول العشـيرة عدم التعصب للأديـان واحترام

(1) أحمد زكي أبوشادي: البناية الحرة، خطرات عن الماسونية، ، صـ 98 - 109.

سائر المذاهب المعروفة. أما شعارها فهو: الحرية والإخاء والمساواة... ولا تتعرض هذه العشيرة في اجتماعاتها للمباحث الدينية ولا تخوض في المباحث السياسية، كما نصت المادة العاشرة على ضرورة الاعتقاد بوجود الإله والإيمان بخلود النفس، وهو اعتقاد فلسفي صميم».[1]

ويضيف أبو شادي إن الاعتراف بوجود إله للكون (المهندس الأعظم) لا يرد إلى عقيدة بعينها أو نصوص مقدسة، بل هو استنباط اهتدى إليه العقل من إدراكه لحسن النظام والحكمة الصانعة والتصور المبدع لكل ما في الوجود، وأن التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل وعشق الجمال والفناء في الخير ليس استجابة أو طاعة لتعاليم بعينها، بل هو استجابة للروح الإنسانية الطاهرة التي تنشد دائماً الكمال والخلود، وأن مجالسة الحكماء نابع من وعي وخبرة مفادها أن الشبيه يدرك الشبيه، وعليه فمصاحبة الفلاسفة والعلماء يُمكن العقل من اختيار سبله في العيش وانتقاء آلياته للارتقاء والتحضر. وأن محاربة الرذائل ومكافحة الشهوات ومجاهدة المطامع لا يعد سوى طاقة إيجابية تدفع بنفس القدر إلى البر والمحبة وتحرير الإنسانية من الأنانية والرغبة في السيطرة والتملك.

وأن الرسالة التنويرية التي يحملها الماسوني على عاتقه ما هي إلا المكافأة التي إذا ما أثمرت تحقق لصاحبها السعادة، فهل هناك أجمل من تربية العقول وتوعية الأذهان وغرس شجرة المحبة بين أفراد الأسرة، والولاء للوطن والوفاء للأصدقاء ورعاية المعوزين والعطف على المحتاجين، وبذل قصارى الجهد لمعرفة الإنسان نفسه قبل أن يتهكم أو يسخر من فهمه لأنفس الآخرين،

(1) المرجع نفسه، ص 108، 109.

والتفـاني في البحـث عن الحقيقة فهي غاية الغايـات، وفي البحث عنها أقصى درجات اللذة والمتعة العقلية.

واتخـاذ العلم نهجـاً ومنهجـاً فـإذا كان للحقيقة وجوه عـدة فلتكن هي الحكمـة والعدالة والحريـة واللطف والرحمـة والحلم والتواضـع والقناعة والعفـة. كما أن النفس النقية هي التي تتخذ من الإخلاص والوفاء والصدق والتسامح والتضحية من أجل الوطن غاية لها.

كـما أن احـترام معتقـدات الآخريـن وديانـاتهـم هـو الحكمـة العملية للتسـامح والتخلي عن العنف والعزوف عـن الصراعات، والحذر كل الحذر من الإسراف في القدح والمدح فكلاهما لا يوصل للحقيقة أبداً، كما أن سـنة الرفـق بالزوجة والأبناء من لوازم التربية القويمة التي لا يجب على الماسـوني الجنوح عنها.

و إذا ما تأملنا المبادئ والتعاليم الفلسـفية الماسونية في مجملها سوف ندرك أنها خلاصة العديد من الاتجاهات والفلسـفات والديانات والتصورات التي جمعـت في بنيتها بين المثالية والواقعية ولاسـيما في مبحثي المعرفة والأخلاق، ولا يزعم فلاسـفة الماسـونية أنهم قدموا جديداً فيما وضعوه دسـتوراً حاكماً لفلسـفتهم المعلنـة، بـل أنهم يعترفـون بأنهم بحثـوا وانتقوا أفضـل ما كُتب مـن النصائح والتعاليـم والآراء والأفـكار، وأعادوا صياغتهـا لتكون خير ممثـل لخطابهم الدعـوي والإعلامي للمثقفين على اختـلاف مراتبهم وميولهم وأجناسهم وفلسفتهم التطبيقية.

□□□